

تَرْبِيَةُ الْقِيَمِ فِي عَصْرِ مَا بَعْدَ الْحَقِيقَةِ

هيئة التحرير

1. البحثُ عن القيمِ في المجتمع الحديث

أصدرت مجلة وقائع التعليم العالمي الأمريكية¹ في مطلع عام 2017م، تقريراً خاصاً مطولاً جاء في 32 صفحة بعنوان "ما بعد الحقيقة، post truth". بدأ التقرير بالإشارة إلى أنَّ مصطلح: "ما بعد الحقيقة" دخل قاموس أكسفورد عام 2016م، واعتُبر كلمة ذلك العام: The word of the year. ومقالات التقرير كانت تعبر عن حالة جديدة يمرُّ بها عالم اليوم، وفيه "أنَّ الحقائق الموضوعية أقلُّ تأثيراً في تشكيل الرأي العام من أثر العواطف والمعتقدات الخاصة. وقد بيَّنت مقالاتُ التقرير البتَّ ما تعنيه هذه الحالة في التعليم والسياسة والإعلام والحياة الاجتماعية من انتشار الأخبار الكاذبة، التي يقع فيها الناس فريسة الدعاية السياسية والفكرية والاقتصادية المغرضة، وأنَّ الحقيقة أصبحت سلعةً في عالم الاستهلاك، مما يقتضي إثارة حرب ضد الأخبار الكاذبة والمآسي التي تحدثها. فنظرية المؤامرة انتقلت من الهامش إلى قلب الحياة العامة، وأنَّ مسألة الأخبار المفبركة تعني أنَّ النسيج الاجتماعي ارتبط بالإعلام والسياسة بطريقة لا فكاك منها."

وعن الموضوع نفسه نشرت صحيفة الغارديان البريطانية في نوفمبر 2017م، مقالةً بعنوان: "نحن الآن في عالم ما بعد الحقيقة مع تآكل في الثقة والمساءلة، ولن ينتهي ذلك إلى خير."²

ونشرت مجلة الشؤون الدولية التي يصدرها المعهد الملكي للشؤون الدولية البريطاني تشاثام هاوس، مقالة بعنوان: العلاقات الدولية في عصر سياسة ما بعد الحقيقة. وجاء في

¹ The Chronicle of Higher Education. Special Report, January 11, 2017.

² Enfield, Nick. We are in a post-truth world with eroding trust and accountability, It can't end well, *The Guardian*, Thursday 16 Nov 2017.

المقالة أنَّ الأحداث العالمية في السنة السابقة (الحديث عن عام 2016م)، أتاحت نشر كتب وتقارير كثيرة تتحدث عن أنَّ السياسة المعاصرة قد تحوّلت من عصر العقل والحقائق إلى عصر الإثارة والكذب. والمقالة هي مراجعة لعدد من الكتب التي صدرت مؤخراً حول "عصر ما بعد الحقيقة"، ويقترح كاتب المقالة أن ينصرف الاهتمام من توثيق الأمثلة الكثيرة عن الأخبار الكاذبة إلى دراسة القيم الكامنة وراء اتجاهات الإثارة والعنصرية والجنسية ودور وسائل الإعلام وأساليب التواصل في السياسة الدولية المعاصرة.³

وقد أصبح موضوع القيم وموقعها في التربية والتعليم قضية تستأثر باهتمام مؤسسات المجتمع على المستوى المحلي والعالمي، وتتصل بالعمل التربوي في فلسفته وأساسه النظرية وممارساته العملية، وذلك بما هو ملاحظ من تغيير كبير ومتواصل في منظومة القيم والسلوك القيمي والأخلاقي في مؤسسات التعليم وفي المجتمع بصفة عامة. فقد نشرت المجلة العالمية للبحث والتطوير المتقدم، بحثاً بعنوان الشباب والقيم الأخلاقية في عالم متغير، كشف فيه الباحث "كابيل ديف" عن أنَّ مظاهر السلوك غير الأخلاقي وغير الاجتماعي عند الشباب عموماً وطلبة المدارس خصوصاً يتزايد يومياً.⁴

إنَّ قيمة الإنسان تكمن فيما يتحلّى به من قيم ومبادئ راسخة، تمنحه ثقة بنفسه ووعياً بوظيفته في الحياة، وحرصاً على العطاء الدائم، فإنسان القيم كالشجرة المباركة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كلَّ حين، ومن دون هذه القيم يُصبح الإنسان متغيراً متلوناً، لا رسوخ له على مبدأ ولا موقف، تتلاعب به أنانيته وأهواؤه العابرة، وتقتلعه رياح الفتن الإعلامية، وكأنه قشّة تحركها الرياح في كلِّ اتجاه، وعندها لن تزيد قيمته عن قشّة، حتى لو ملك القناطير!

³ Crilley, Rhys. International relations in the age of 'Post-Truth' Politics, *International Affairs*, Volume 94, Issue 2, 1 March 2018, pp. 417-425.

⁴ Dev, Kapil. Youth and moral values in a changing society *International Journal of Advanced Research and Development*, Issue 4, July 2017, pp. 164-167.

2. التربية على القيم في مجتمعاتنا الإسلامية

إنّ الإسلام هو مدرسة المسلمين، وإنّ القرآن الكريم هو المنهاج التربوي في هذه المدرسة؛ فقد كان نزول القرآن الكريم منجماً وعلى مدى زمني طويل، عمليةً تربويةً تأخذ بنفوس الناس حالاً بعد حال، حتى اكتمل الدين بشريعته ومنهاجه، وتمت به نعمة الله على خلقه.⁵

وقد كانت حياة النبي ﷺ نشاطاً تعليمياً متصلاً في جميع شؤون الحياة. فهو المعلم بنص القرآن الكريم: ﴿وَيَعْلَمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 151)، وهو المعلم بنص الحديث الصحيح: "إنّ الله لم يعثني معنئاً ولا متعنئاً، ولكن بعثني معلماً وميسراً."⁶ وهو المعلم فيما عرفه الصحابة عنه، حين يقول أحدهم: "ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه."⁷ كان المقصد الأساس من هذا الدين هو تعليم القيم ومكارم الأخلاق؛ فقد جاء في الحديث: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق." وبذلك نستطيع أن نقول، دون تردّد، إنّ الإسلام هو دينُ تربية القيم.

نقصد بالتربية في السياق الذي نحن فيه مجمل عمليات بناء شخصية الإنسان في مراحل حياته وجوانبها، لتحقيق أقصى ما تمكّنه منه قدراته؛ وتتضمن هذه العمليات: التنشئة والتعليم والتأديب والتدريب والتعلّم والنمو الذاتي. وتتضمن التربية بوصفها عمليات اجتماعية متعددة: تنشئة والدية أسرية، وتنقيفاً اجتماعياً، وتعليماً أكاديمياً، وتدريباً مهنيّاً؛ وتعلماً ذاتياً، ومن ثمّ فإنّ قيم التربية موجودة في جميع هذه العمليات. والتربية هي علم تنمية القيم، وهذا يشمل عمليات تعلّم القيم وتعليمها وتقويمها في جميع مستويات التربية والتنشئة، وفي جميع مجالاتها.

ونحن نؤمن بأنّ تربية القيم تحتل موقعاً مركزياً في جهود الإصلاح التربوي في المرجعية الإسلامية. ويجدر بنا أن نلاحظ الصفة التكاملية والتبادلية بين التربية والقيم، فالتربية هي

⁵ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: 3).

⁶ مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم، عناية: أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط1، 1998م، حديث رقم 1478، ص592.

⁷ المرجع السابق، حديث رقم 537، ص216.

وسيلةً لتنمية القيم، والقيم هي موجّهاتٌ للتربية. فالتربية قيم، وفي التربية قيم تربية، والتربية سلوكٌ قيمي.

تربية القيم، أو التربية على القيم، أو التربية القيمية، هي تربية أخلاقية، وتأدّبٌ بآدابٍ وفضائلٍ نفسيةٍ وسلوكيةٍ من صدق ووفاء وإيثار، وغير ذلك من الفضائل والشمائل. لكنّ هذه التربية تتسع لتشمل قيماً في الاجتماع البشري فطريةً وتعاقدية. فحياة البشر إنّما تقوم على علاقات اجتماعية تفرض حقوقاً وواجبات، وتبني نظاماً، وتضع عقوداً، وتقرّر التزامات، تقوم كلّها على الشعور بالمسؤولية والرعاية والتكافل. وتستمر التربية القيمية في التوسع لتحقيق قيم المسؤولية عن الحياة، والاستخلاف في الأرض وعمرانها المادي والمعنوي، وما يلزم ذلك من قيم الاجتماع البشري.

والتربية على القيم يمكن أن تتم في أي مؤسسة من المؤسسات التي تؤدي دوراً تربوياً؛ بما في ذلك الأسرة، والمدرسة، ووسائل الإعلام، ومؤسسات المجتمع الثقافية والرياضية والدينية، دون أن ننسى مسؤولية الفرد نفسه عن نفسه كلّما امتلك قدراً من الوعي بضرورة السلوك القيمي وأهميته في تشكيل شخصيته ومكانته في المجتمع والحياة.

3. تعليم القيم في الأسرة

عندما نتحدث عن وظيفة الأسرة في التربية على القيم، فإننا نأخذ بالحسبان أنّه لا معنى للقيم إلا إذا كانت صفات متجسدةً في مشاعر الناس وسلوكهم وأعمالهم. وفي المجتمع البشري أساليب تنشئة تعتمد أساساً على تقليد الصغير للكبير، وأحياناً يحدث التقليد بطريقة عفوية، فينشأ الأطفال مثلاً على القيم وأخلاق التعامل التي يلاحظونها ويعيشونها في جوّ الأسرة، وإذا حاول الطفل أن يسلك سلوكاً معيناً يتنافى مع القيم السائدة في حياة الأسرة، فالمعتاد والطبيعي أن يتم توبيخه، وتوجيهه. وثمة مواقف في الأسرة يُلقن فيها الأبوان الأطفال قيماً معينة، بوصف هذه القيم خصائص وصفات لأفراد العائلة، أو لثقافة المجتمع، وهي في الأساس خصائص وفضائل بشرية نبيلة. ولا شكّ في أنّ تجسيد القيم عملياً في واقع الأسرة النواة، والأسرة الممتدة، هو الوسيلة الفطرية

لتشرب القيم والتطبع عليها. أما التلقين فربّما يقف بتربية القيم عند جعلها معارف ومعلومات تُطلب معرفتها على أمل أن يتم التفاعل معها بمرور الزمن.

وأكثر القيم البشرية النبيلة يتم اكتسابها في الأسرة أولاً، فالأسرة هي المكان الأول للتربية على قيم الإنسانية، وأولها قيمة الكرامة الإنسانية، التي تُشعر الفرد بإنسانيته وتفردّه ومسؤوليته، وتبدأ تجليات هذه المسؤولية في العلاقات المنزلية، فكلُّ عضو فيها راع، وكلُّ راع مسؤول عن رعيته.⁸ وهي قيمٌ يعي معها الإنسان أنّ ثمة حدوداً وآداباً، وهو يعرف أين تبدأ وأين تنتهي.

والتربية الأسرية تبني عند أفرادها قيمة الأسرة نفسها من تعزيز أهمية بنائها وموقعها في بناء المجتمع وتوريث قيمها الكبرى، وما تحمله من قيم متفرعة عنها: فالتربية الأسرية تُعلّم أفراد الأسرة معنى الميثاق الغليظ والمقدس بين الزوجين، وما يستقر بينهما من السكّن والموودة والرحمة، وما يبني من علاقة لا تقل قداسةً بين الأبناء والآباء، فالأبناء والأحفاد قرّة أعينٍ للآباء والأجداد،⁹ وإحسان الأبناء للوالدين قيمةٌ تأتي مباشرة بعد عبودية الإنسان لله.¹⁰ والتربية الأسرية هي المكان الطبيعي لما تبنيه من قيم الزوجية، والذكورة والأنوثة، والأبوة والأمومة والبنوة، والعمومة والخوولة، والامتدادات الأفقية للصهر والنسب، والامتدادات العمودية من الجدود إلى البنين والحفدة والأسباط، وما يقتضيه ذلك كلّهُ من فهم وتقدير لقيم الروابط وعلاقات الرّحم والقربى في الأسر الممتدة، وفهم ما تميله هذه العلاقات من حقوق وواجبات.

وبرامج التربية الأسرية يمكن أن تصمم بصورة تبني الوعي عند الوالدين عن طريق التعليم المباشر، والتمثيل، ولعب الأدوار، فضلاً عن السلوك القيمي في مسائل عديدة

⁸ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "أَلَا كُتِبَ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ." انظر:

- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري، عناية: أبو صهيب الكرمي، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ط1، 1998م، حديث رقم 893، ص 179.

⁹ ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: 74).

¹⁰ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء: 23).

منها: تحمّل المسؤولية، ومكارم الأخلاق، والشورى، والحوار، وأساليب الخطاب، وأساليب التعامل مع الآخرين، وحقّ الجوار، وغير ذلك.

لكنّ الأسرة مع ذلك تتولى الشأن التربوي بطريقة فطرية، فأصل كلّ فرد في المجتمع البشري رجلاً أو امرأة، صغيراً أو كبيراً هو الأسرة، ففيها تبدأ التربية البدنية، رعايةً وتنشئةً، وفيها تتجلى التربية الاجتماعية في التواصل اللغوي وعلاقات القرّبي والرحم، والانتماء إلى المجتمع. وحتى لا تكون هذه التربية فطرية تقليدية ينقصها الترشيد وتبادل الخبرة، يلزم تطوير برامج التربية الأسرية والتربية الوالدية.

الأسرة هي الحصن الأخير لقيم المجتمع وهويته وانتمائه، وحين نتذكر الهجوم الكاسح في الثقافة العالمية على مؤسسة الأسرة فما الذي سوف يبقى؟ ومن الذي يستطيع أن يعوّض ما تقوم به الأسرة في مجال التربية على القيم؟!

4. تعليم القيم في المدرسة

هذا عن الأسرة أما التعليم النظامي في المدرسة فهو المسؤول عن ترشيد التربية الأسرية على القيم، وتعزيزها، واستكمالها. ولذلك فإننا نجد أنّ كلّ النظم التربوية في العالم تميّز في الأهداف والغايات التربوية العامة بين ثلاثة مجالات من هذه الأهداف: المجال المعرفي، ويضم اكتساب المعارف والمعلومات؛ والمجال المهاري ويضم إتقان عمليات التواصل اللغوي، والتفكير العقلي، والتعامل اليدوي؛ والمجال الانفعالي ويضم الاتجاهات والقيم. ولكنّ القيم هي روح العمل التربوي، والأساس الذي تُبنى عليه البرامج والمناهج والأهداف التربوية، لأنّ هدف التربية هو الإنسان، والقيم هي الصفة الأساسية للإنسان الذي تعمل التربية على إخراجها. فالقيم ليست مجرد مكوّن من مكوّنات الأهداف التربوية، وإنّما هي الإطار الذي يعطي للأهداف الأخرى قيمتها وأهميتها وفعاليتها.

وتعليم القيم أو التربية على القيم في المدرسة يتمّ كذلك بالتطّبع على القيم التي تجعلها المدرسة ثقافةً نظرية وممارسةً عملية، يشترك فيها كلّ الحاضرين في المدرسة. ومثل ذلك يقال في كلّ مؤسسة من مؤسسات المجتمع. ومهما استخدمت المدرسة من أساليب

لتضمن القيم في برامج التعليم، فلن تستغني المدرسة عن أمرين أساسيين: الأول وجود القدوة والأسوة العملية التي تتمثل في سلوك المعلم فيما يقول ويعمل. والثاني: هو سيادة ثقافة مدرسية في العمل المدرسي تتجلى فيها القيم الأخلاقية والاجتماعية والمهنية، في البيئة المادية والعلاقات الشخصية والاجتماعية، وطرق التعامل بين جميع من في المدرسة ومحيطها الإداري والاجتماعي. ويُعدّ التزام مدير المدرسة بسيادة منظومة القيم، والثقافة المدرسية القائمة على هذه القيم، العامل المهم في ضبط التزام مجتمع المدرسة، وتمثلها بهذه القيم.

وقد ظهرت دعوات متزايدة في السنوات الأخيرة صدرت عن تربويين وحكومات ومجتمعات محلية لضرورة تعليم القيم في المدارس العامة، في الولايات المتحدة الأمريكية، مما قاد إلى تطوير برامج لتربية القيم أو التربية على القيم. وقد أشارت نتائج تقويم بعض هذه البرامج إلى أنّ تربية القيم لا بدّ أن تكون جزءاً أساسياً من الحياة المدرسية الأمريكية. لكنّ كثيراً من محاولات بناء وتطبيق مناهج دراسية تستند إلى القيم كانت تحاول التأسيس على الأخلاقيات الاجتماعية والطبيعية. وعلى الرغم من القيمة الكامنة في تعليم القيم على أساس هذه البرامج، فقد تبين أنّ النظريات الطبيعية والاجتماعية لا تقود إلى الالتزام الأخلاقي الكافي لإقناع البشر بإعطاء الأولوية للمصالح العامة، والتخفيف من التمرکز حول الذات الطبيعية. وقد وُلد ذلك مشكلة أساسية فيما يختصّ بتعليم القيم في المدارس، هي غياب أيّ أساس لتحقيق المصادقية في هذه البرامج، والسبب في ذلك أنّ تعليم القيم يعدّ مسألة فردية إلى حدّ كبير، وأنها تتّصف بالنسبية، فلا تتمكن هذه البرامج من تحقيق التزام أخلاقي جادّ. ولذلك توصلت هذه الدراسة إلى أنّ الأساس المناسب لتدريس القيم هو الأساس الإيماني الذي يقوم على المرجعية الدينية الإلهية.¹¹

وتظهر أهمية تعليم القيم على وجه الخصوص في الظروف التي يمرّ بها العالم المعاصر، ونختار أن نذكر من بين ما يسود في هذه الظروف مسألتين: الأولى هي انتهاك حقوق

¹¹ Etherington, Matthew. Values Education: Why The Teaching Of Values In Schools Is Necessary, But Not Sufficient, *Journal Of Research On Christian Education*, 22:2, 2013, pp. 189-210.

وحريات كثير من الأفراد والشعوب، وهدر قيم العدالة الاجتماعية والاقتصادية، نتيجة سيادة المصالح المادية في العلاقات بين الدول والشركات والجماعات، والمسألة الثانية هي سيادة الكذب والتزوير في وسائل الإعلام التقليدية ووسائل التواصل الاجتماعي، إلى درجة بات من الصعب التعرف على الحقيقة فيما تنشره هذه الوسائل. فإذا اقتصر التعليم على تزويد المتعلمين بالمعرفة والمعلومات والمهارات على أهميتها، دون الاهتمام بالقيم، فإنّ هذا التعليم ربّما ينتج بشراً هم أقرب إلى الشياطين الأذكىء منهم إلى البشر الأسوياء! ونستطيع أن نلاحظ نماذج من هذه النتائج في الشباب الذين تخصصوا في امتلاك مهارات استثنائية في اختراق أنظمة البيانات الرسمية والشخصية، وتهديد فاعلية هذه الأنظمة، وانتهاك خصوصيات الآخرين وابتزازهم؛ مادياً ومعنوياً وأخلاقياً.

وقد كشفت دراسة نشرتها مؤسسة متخصصة بالتعلم الافتراضي (الرقمي) digital learning، استطلعت فيها آراء عدد من المختصين بالتعليم والتكنولوجيا من أنحاء العالم، حول الاتجاهات والتحديات التي تواجه التعليم والتكنولوجيا عام 2016م. فكشفت النتائج عن أهمية تضمين القيم في التعليم. والمسألة المهمة في هذا المجال هي الكيفية التي يمكن للعقول الشابة أن تتعامل مع ما تقدّمه التكنولوجيا المتقدمة المتاحة للجميع من: "طوفان المعلومات التي يتلقونها من أخبار وبرامج تسلية، ومواقف وآراء وإعلانات، غير ذلك".¹²

لكنّ الخطورة الأهمّ في كثير مما ينشر عن أهمية تعليم القيم مما ينشر عن طريق مؤسسات الأمم المتحدة، ومؤسسات الفكر والثقافة والتعليم العالمية، هي طلب الاستجابة لحالة العوالة التي يمرُّ بها العالم اليوم، والتكئيف مع قيم الحياة المعاصرة بما فيها من تقبل الآخر، واحترام الاختلاف بين الثقافات. ووجه الخطورة هنا أن المجتمعات التي يغلب عليها التجانس في الثقافة والقيم، سوف تحترقها دعوات التقبل واحترام الاختلاف إلى درجة تهدد هوية المجتمع وخصوصياته القيمية، وانتشار حالة السيولة الأخلاقية، التي لا ترى في الشذوذ والفساد أكثر من اختيارات وتفضيلات شخصية تستحق التقبّل والاحترام!

¹² <https://www.goconqr.com/en/blog/the-importance-of-teaching-values-in-education>

ومن البرامج التربوية ما يعدّ تربية للقيم على وجه الخصوص، ولذلك وجدنا بعض المهتمين بموضوع القيم يضعون مناهج خاصة بالقيم تتضمن مقترحات للتعامل مع القيم بطرق مختلفة، منها دمج القيم مع النشاطات المدرسية العامة، أو التعامل معها ضمن موضوعات المواد الدراسية، أو تدريسها بصفحتها مادة دراسية مستقلة.¹³

5. تربية القيم ومؤسسات الإعلام

ليس غريباً أن يحصل التطور والتغير في واقع المجتمع البشري مع مرور الزمن وتطور العلوم والخبرات؛ فهذا حاله على مدار التاريخ. ولكنّ عناصر القوى الأكثر تأثيراً في حالة المجتمع وتشكيل ملامحه، كانت تختلف من عصر إلى آخر. ولعلّ المؤثر الأكبر على حالة المجتمع المعاصر هو الإعلام. فالمجتمع المعاصر وصل إلى حالة من الطغيان الإعلامي بتعدد وسائله، وكثرة مؤسساته، وجاذبية معروضاته، وحضوره على مدى 24/7،¹⁴ ثمّ بتحوّله إلى إعلام فضائيّ، خلق عالماً افتراضياً يعيش الناس فيه، ويفتقدون عالمهم الواقعي، وبلغ في انتشاره وقوة تأثيره أن أصبح الفرد ضحيةً لما يقذف به الإعلام من أفكار وأخبار، ومن اختيارات وتفضيلات ومغريات، وما يتسلل من ذلك كلّه بدكاء ودهاء، من بناء قيم معينة وهدم قيم أخرى. ويتم ذلك كلّهُ بطريقة تدريجية لا تسمح بتعقّل خطورة هذه التحولات أو الشعور بخطورتها وبناء ما قد يلزم من وسائل الحماية.

ومن وجوه الخطورة التي يمثلها الإعلام المعاصر أنّ هذا الإعلام أوجد في المجتمع المعاصر مناخاً ثقافياً متقلّباً، سريع التغير، تتضارب فيه التوجهات والقيم، ويؤثر في أذواق

¹³ العبد الجادر، فيصل فهد. تعزيز القيم في مناهج التعليم العام: إطار عام للتربية القيمية، الكويت: المركز العربي للبحوث التربوية لدول الخليج، 2014م. وثمة جهود تربوية مقدرة تختص بإدماج القيم في البرامج التعليمية المدرسية، انظر في ذلك الخبرات والمقترحات والبرامج التي تشير إليها كتب مثل:
- الصمدي، خالد. إدماج القيم الإسلامية في المناهج الدراسية، الرباط: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، 2003م.

- الصمدي، خالد. القيم التربوية في المنظومة التربوية: دراسة للقيم الإسلامية وآليات تعزيزها، الرباط: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، ط1، 2008م.
¹⁴ الرمز "24/7" يدل على المدى الزمني المتواصل دون توقف، على مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم، وسبعة أيام في الأسبوع.

الناس واختياراتهم وأمناء سلوكهم، ويتحكم في الرأي العام وتوجهاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية، وفي الوقت نفسه أصبح هذا الإعلام أداةً للقوى السياسية والشركات التجارية والتوجهات الفكرية، في التأثير على الناس وتشكيل مواقفهم واتجاهاتهم وقيمهم. ولذلك لا بد أن نعتزف بأن التعامل مع وسائل الإعلام والاتصال في المجتمع المعاصر ليس أمراً يسيراً، وهو ما يجعل الاهتمام به ووضع البرامج المناسبة لها أمراً محتملاً.

لذلك فإن مجتمعاتنا المعاصرة تحتاج إلى ما يسمى "التربية الإعلامية"، وتتسع دائرة هذا المفهوم لتكون جزءاً من تعليم الأفراد من مختلف الأعمار طرق التعامل مع وسائل الإعلام والاتصال المعاصرة، فحضور هذه الوسائل على مدى 24/7 وكثرتها، وتنوعها، وسهولة توفيرها، وجاذبيتها، تجعل من الضروري أن يتعلم الإنسان كيف يتعامل معها، ومتى يستعملها، وما يأخذ منها وماذا يضع فيها؟ فالطغيان والفوضى والانفلات الإعلامي يؤثر على الطريقة التي يدير فيها الناس حياتهم وينظمون أوقاتهم.

ومن هنا فإن كل فرد يحتاج إلى شيء من التربية الإعلامية، تأتي من وعيه بمصلحته الفردية ومصلحة أسرته ومجتمعه، فالأمر في الأساس مسؤولية فردية. وتستطيع الأسرة أن تقدم شيئاً من هذه التربية الإعلامية لأبنائها، ليس فقط عن طريق وضع القواعد والضوابط والقيود، وهي لازمة على كل حال، وإنما عن طريق المثال والقُدوة، والتنشئة والتدريب، والتوجيه والترشيد. وتستطيع المؤسسات التعليمية المدرسية والجامعية تقديم توجيهات وبرامج لهذا التربية الإعلامية كذلك.

ومن الممكن تصميم برامج إعداد المعلمين وتدريبهم لتضمينها نشاطات ومقترحات حول توجيه الطلبة إلى أساليب التعامل الحكيم مع وسائل الإعلام والتواصل، وإتقاء مخاطرها من جهة وكيفية توظيفها والاستفادة منها من جهة أخرى. فكل ذلك أمرٌ ضروريٌّ في بناء الشخصية المتوازنة والمتكاملة، وفي التدريب على تحمل المسؤولية والتمييز بين المنافع والمفاسد، والحكم الصحيح على الأمور والتصرف السليم إزاءها.

والتربية الإعلامية كذلك لا تقتصر على الوعي على الأخطار التي يمثلها الإعلام المعاصر، وإنما تشتمل كذلك على التدريب على أساليب توظيف وسائل الإعلام المتاحة

إيجابياً، واستخدامها في تصحيح الأخبار، وإصلاح الأفكار، وعرض النماذج الخيرة، وتكريس القيم الفاضلة. ف"إشعال شمع خير من لعن الظلام" كما يقولون. ويمكن للوعي الفردي والمؤسسي بأهمية التربية الإعلامية أن يسهم في التنبيه إلى عناصر الهوية والانتماء الديني والثقافي والحضاري، وتحصين المجتمع من الأخطار التي تتهدد هوية الأمة وثقافتها.

وثمة دراسات تربوية كثيرة تناولت أسباب تدهور القيم الأخلاقية في المدارس في المجتمعات المعاصرة في أنحاء العالم. ومعظم هذه الدراسات أظهرت أن ما يتلقاه الطلبة من وسائل الإعلام والتواصل، وما ينشر فيها يُعد سبباً رئيساً في ذلك التدهور. ومن هذه الدراسات دراسة "مقارنة عبر ثقافية" حول أسباب تدهور القيم الأخلاقية قدمت إلى المؤتمر الأكاديمي التربوي الذي نظّمه معهد الغرب والشرق¹⁵ عام 2016م في بوستن-ولاية بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية، استطلع ثلاثة باحثين، من تركيا والصين والولايات المتحدة الأمريكية، آراء عينة من المعلمين في هذه البلدان الثلاثة. فوجدوا أن تآكل القيم الأخلاقية أصبح ظاهرة ملحوظة في البلدان الثلاثة، وتتمثل بأشكال من الممارسات والسلوكات الخاطئة، ومنها العنف، والتمركز حول الذات، والحيانة، والبلطجة، والوقاحة، وأن هذه السلوكيات عند الشباب وطلبة المدارس آخذة في التزايد بصورة كبيرة.

وتوصلت الدراسة إلى أن المعلمين الذين شملتهم الدراسة في البلدان الثلاثة أجمعوا على أن القيم الأخلاقية تعاني من ضعف متزايد في مجتمعاتهم المدرسية، وأن أهم سببين لتدهور هذه القيم هما الإعلام والعملة. ومثال ذلك أن محتوى العنف في البرامج والموسيقى تنقل قيماً أخلاقية سلبية، وأن الأبعاد الاجتماعية والثقافية للعملة وتمثلتها في وسائل التواصل وتجلياتها في السلوكات الاستهلاكية لها أثر هائل على القيم والأخلاق. وأشارت هذه الدراسة إلى دراسات متعددة أخرى في بلدان مختلفة أظهرت نتائج مشابهة.

وأوصت الدراسة بضرورة اهتمام الأسرة والمدرسة وتعاونهما في تطوير القيم النبيلة في المراحل المبكرة من عمر الأطفال، بالاعتماد على أن السنوات الأولى من أعمارهم لها

¹⁵ The West East Institute- WEI.

أهمية كبيرة في تشكل العادات والقيم الأخلاقية. وأكدت على ضرورة تضمين برامج إعداد المعلمين إجراءات وتدريبات تدريسية لتعليم القيم في الصفوف المدرسية.¹⁶

6. التربية على القيم في المؤسسات الأخرى

الأثر التربوي في الأسرة والمدرسة يختصُّ بمرحلة الطفولة ومرحلة الشباب المبكر. والأثر التربوي للإعلام يختصُّ بهاتين المرحلتين بالإضافة إلى المراحل اللاحقة. وثمة مؤسسات أخرى لها أثر على جميع المراحل. ومنها مؤسسة المسجد؛ فالمسجد موطنٌ تعلمُ الفضائل والتأدب بها، والتخلُّق بمكارم الأخلاق، وللذهاب إلى المسجد آدابٌ وأخلاقٌ نفسيةٌ واجتماعية، فيه يحاول الإنسان أن يستشعر أنه في ضيافة الله سبحانه، فيحسن السلوك في بيت الله، ويشغل وقته بالذكر والتفكير، ويستمتع بالسكينة والصفاء، وهي تربيةٌ نفسيةٌ تفيده في سائر أوقاته وأعماله. وفي المسجد صلاة مع الجماعة تقتضي أن لا يكون عند أحد الحضور ما يُنْفِرُ منه، من منظر أو رائحة أو سلوك. وفي المسجد يكون التعارف، وتُبنى الصلات والعلاقات، ويتفقد المصلون بعضهم بعضاً، بالسؤال عن الغائب ومساعدة المحتاج، وكلُّ ذلك تربية اجتماعية تحفظ النسيج الاجتماعي وتقويه. وكلُّ سلوك أخلاقي فاضل يظهر على أحد الحضور في المسجد، يكون قدوة لغيره من الحضور.

وفي المجتمع مؤسسات أخرى، يمكن أن يُستثمر أيُّ منها في تعزيز الآداب الفاضلة والقيم الأخلاقية النبيلة، فمنها الجمعيات الخيرية والثقافية والنوادي الرياضية والأحزاب السياسية، فالقيم ليست شأنًا مقصوراً على مؤسسة متخصصة، وإنما تتداخل القيم مع العمل الخيري والثقافي والرياضي والسياسي وغير ذلك.

¹⁶ Taneri, Pervin Oya, Gaom Jie, and Johnson, Rodger. Reasons for the Deterioration of Moral Values: Cross-Cultural Comparative Analysis, Boston, USA: *The 2016 WEI International Academic Conference Proceedings*, 2016, pp. 242-252.

والدراسة كاملة يمكن استرجاعها من الرابط:

- <https://www.westeasinstitute.com/wp-content/uploads/2016/09/P.-O.-Taneri-J.-Gao-R.-Johnson.pdf>.

ولا تقتصر التربية على القيم وتعلّمها وتعلّمها على الصغار، فأخطر ما يهدد القيم في المجتمع أن يكون الكبار سنّاً والكبراء في المكانة، لا يتصفون بالقيم النبيلة. والكبار هنا هم آباءٌ وأمّهات، ومعلمون ومعلمات، وأساتذة في الجامعات، وأطباء ومهندسون، وسياسيون وإعلاميون. ألا نسمع كل يوم على اكتشاف قضايا فساد في حق أمثلة على هؤلاء جميعاً؟!

ألا نسمع كلّ يوم خبراً عن اكتشاف قصص الفساد عند رئيس أو وزير أو مسؤول كبير، في بلد من بلدان العالم؟! وتأتي قصص الفساد هذه عادة ضمن تصنيفات معينة فيقال: فسادٌ مالي أو إداري أو أخلاقي... لكنّ كلّ أشكال الفساد هي فساد أخلاقي، فسرقه المال وتزوير وثائقه وتلقّي الرّشا... أخلاقٌ رذيلة، وممارسة المسؤول الظلم والابتزاز في تعامله مع الموظفين في علاقة تحكمها المحسوبة وتبادل المصالح الشخصية، ضارباً عرض الحائط بالكفاءة والأولوية والحقوق... فسادٌ أخلاقي، وأصحاب المهن من أطباء ومهندسين ومقاولين عندما يمارسون الغش في أعمالهم فسادٌ أخلاقي. وكلّ أشكال الفساد ناتجة عن عدم التحلّي بالقيم.

وعندما نقول إنّ الكبار في الأسرة ينبغي أن يكونوا في مقام القدوة والأسوة، ليقفّي الصغار أثرهم في التحلّي بالقيم والأخلاق والفضائل، فإننا يمكننا أن نقول - بالمنطق نفسه - إنّ المسؤول في الحكم يمكنه أن يكون في مقام القدوة والأسوة كذلك ليقفّي المواطنون أثره في التحلّي بالقيم، والمسؤول في المؤسسة يمكنه أن يكون في مقام القدوة والأسوة ليقفّي الموظفون أثره في التحلّي بالقيم. ويستطيع كلّ فرد من الكبار أن يتذكر مواقف إيجابية مؤثرة، ربما غيرت مسيرته حياته إزاء بعض الأمور، سببها سلوكٌ أخلاقيٌّ فاضل رآه من وزير، أو طبيب، أو أستاذ في الجامعة، أو سائق سيارة في الطريق.

فعملية تعلّم القيم وتعلّمها عمليةٌ مستمرة طيلة حياة الإنسان، تستهدف صغار السن والبالغين وحتى الكهول. ودعوات الأنبياء كانت موجهةً لجميع أفراد المجتمع رجالاً ونساءً وأطفالاً. ومحمدٌ ﷺ استجاب لدعوته رجالٌ ونساءً وأطفال. لكنّ مسؤولية السلوك القيمي مسؤولية البالغين الكبار بالدرجة الأولى، والصغار يأتون بالتبّع.

في المجتمع البشري اليوم أزمة حقيقية فيما يختص بالقيم، ذلك أنّ معظم المؤسسات التي يفترض أن يتم فيها تعليم القيم تعجز اليوم عن القيام بمهامّها في هذا الجانب تحديداً، لأسباب متعددة تستدعي البحث والدراسة. وفي مجتمعاتنا العربية والإسلامية أزمة مركّبة، تجتمع فيها أزمة القيم السائدة في المجتمعات الأخرى بتجلياتها التربوية وانعكاساتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، إلى جانب أزمة المرجعية في النظر إلى سبل النهوض الحضاري بمجتمعاتنا والخروج بها من حالة التخلف.

والحمد لله رب العالمين